

تفسير البحر المحيط

@ 43 @ تَنْزَلُ عَلَي كُلِّ أُمَّةٍ رِيسٌ * يُلْقُونَ السَّمْعَ وَأَكْثُرُهُمْ كَاذِبُونَ * وَالشُّعْرَاءُ يَتَّبِعُهُمُ الْغَاوُونَ * أَلَمْ تَرَ أَنَّهُمْ فِي كُلِّ وَادٍ يَهِيمُونَ * وَأَنَّهُمْ يَقُولُونَ مَا لَا يَفْعَلُونَ * إِلَّا الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَذَكَرُوا اللَّهَ كَذِكْرٍ وَإِتِّصَارُوا مِنْ بَعْدِ مَا ظَلَمُوا وَسَيَعْلَمُ الَّذِينَ ظَلَمُوا أَيَّ مُنْقَلَبٍ يَنْقَلِبُونَ . . }

كان مشركو قريش يقولون : إن لمحمد تابعاً من الجن يخبره كما يخبر الكهنة ، فنزلت ، والضمير في { به } يعود على القرآن ، بل { نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الْأَمِينُ } . وقرأ الحسن : الشياطين ، وتقدمت في البقرة ، وقد ردها أبو حاتم والقراء ؛ قال أبو حاتم : هي غلط منه أو عليه . وقال النحاس : هو غلط عند جميع النحويين . وقال المهدوي : هو غير جائز في العربية . وقال الفراء : غلط الشيخ ، ظن أنها النون التي على هجائن . فقال النضر بن شميل : إن جاز أن يحتج بقول العجاج ورؤية ، فهلا جاز أن يحتج بقول الحسن وصاحبه ، يريد محمد بن السميع ، مع أنا نعلم أنهما لم يقرأ بها إلا وقد سمعا فيه ؟ وقال يونس بن حبيب : سمعت أعرابياً يقول : دخلت بساتين من ورائها بساتون ، فقلت : ما أشبه هذا بقراءة الحسن . انتهى . ووجهت هذه القراءة بأنه لما كان آخره كآخر يبرين وفلسطين ، فكما أجرى إعراب هذا على النون تارة وعلى ما قبله تارة فقالوا : يبرين ويبرون وفلسطين وفلسطين ؛ أجرى ذلك في الشياطين تشبيهاً به فقالوا : الشياطين والشياطين . وقال أبو فيد مؤرج السدوسي : إن كان اشتقاقه من شاط ، أي احترق ، يشيط شوطة ، كان لقراءتهما وجه . قيل : ووجهها أن بناء المبالغة منه شياطين ، وجمعه الشياطين ، فخففا الياء ، وقد روي عنهما التشديد ، وقرأ به غيرهما . انتهى . وقرأ الأعمش : الشياطين ، كما قرأه الحسن وابن السميع . فهؤلاء الثلاثة من نقلة القرآن ، قرؤوا ذلك ، ولا يمكن أن يقال غلطوا ، لأنهم من العلم ونقل القرآن بمكان . وما أحسن ما ترتب نفي هذه الجمل ؛ نفي أولاً تنزيل الشياطين به ، والنفي في الغالب يكون في الممكن ، وإن كان هنا لا يمكن من الشياطين التنزل بالقرآن ، ثم نفي انبغاء ذلك والصلاحية ، أي ولو فرض الإمكان لم يكونوا أهلاً له ، ثم نفي قدرتهم على ذلك وأنه مستحيل في حقهم التنزل به ، فارتقى من نفي الإمكان إلى نفي الصلاحية إلى نفي القدرة والاستطاعة ، وذلك مبالغة مترتبة في نفي تنزيلهم به ، ثم علل انتفاء ذلك عن استماع كلام أهل السماء مرجومون بالشهب . .

ثم قال تعالى : { فَلا تَدْعُ مَعَ اللَّهِ إِلَهاً ءاخرَ } : والخطاب في الحقيقة للسامع ، لأنه تعالى قد علم أن ذلك لا يمكن أن يكون من الرسول صلى الله عليه وسلم) ، ولذلك قال المفسرون : المعنى قل يا محمد لمن كفر : لا تدع مع الله إلهاً آخر . ثم أمره تعالى بإنذار عشيرته ، والعشيرة تحت الفخذ وفوق الفصيلة ، ونبه على العشيرة ، وإن كان مأموراً بإنذار الناس كافة . كما قال : { أَنْ أَنْذِرِ النَّاسَ } ، لأن في إنذارهم ، وهم عشيرته ، عدم محاباة ولطف بهم ، وأنهم والناس في ذلك شرع واحد في التخويف والإنذار . فإذا كانت القرابة قد خوفوا وأنذروا مع ما يلحق الإنسان في حقهم من الرأفة ، كان غيرهم في ذلك أوكد وأدخل ، أو لأن البداءة تكون بمن يليه ثم من بعده ، كما قال : { قَاتِلُوا الَّذِينَ يَلُونَكُمْ مِّنَ الْكُفَّارِ } . وقال عليه الصلاة والسلام حين دخل مكة : (كل ربا في الجاهلية موضوع تحت قدمي هاتين ، فأول ما أضعه ربا العباس ، إذ العشيرة مظنة الطواعة ، ويمكنه من الغلظة عليهم ما لا يمكنه مع غيرهم ، وهم له أشد احتمالاً) . وامتثل صلى الله عليه وسلم) ما أمره به ربه من إنذار عشيرته ، فنادى الأقرب فالأقرب فخذاً . وروي عنه في ذلك أحاديث . { وَآخِضْ جَنَاحَكَ لِمَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الْأُمِّيِّينَ } : تقدم الكلام على هذه الجملة في آخر الحجر ، وهو كناية عن التواضع . وقال بعض الشعراء : % (وأنت الشهير بخفض الجناح % . فلا تك في رفعه أجدا .) % .